

دار المنظومة

DAR ALMANDUMAH

الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	تاريخ العمارة الاسلامية بين الاستمرارية والتحقيب
المصدر:	مجلة البلقاء للبحوث والدراسات
الناشر:	جامعة عمان الأهلية - عمادة الدراسات العليا والبحث العلمي
المؤلف الرئيسي:	الجواهره، هاني محمد
المجلد/العدد:	مج 9, ع 2
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2002
الشهر:	تشرين أول / رجب
الصفحات:	11 - 32
رقم MD:	401324
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	العالم العربي ، العمارة الاسلامية ، الهندسة المعمارية ، التخطيط المعماري ، الاثار الاسلامية ، العصور التاريخية ، التشييد والبناء ، الزخرفة ، الرسومات
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/401324

4

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

تاريخ العمارة الإسلامية بين الاستمرارية والتحقيب

د. هاني محمد الجواهررة

كلية العمارة والتخطيط - جامعة الملك فيصل

The History Of Islamic Architecture: Continuity Versus Chronological Categorisation

ABSTRACT

The history of Islamic architecture is divided into categories (periods) according to chronological order, where each category is named after a certain dynasty and where all buildings built in this period are named after that dynasty. But to attribute such buildings as products of that specific period may prove inadequate for deep understanding of a complex matter such as that of Islamic architecture. The focus of this paper is on the relevance of studying the history of Islamic architecture according to the well-established chronological categorization of this architecture. The paper examines some of the key issues strongly related to the development of Islamic architecture and highlights some of the shortcomings of this system and influence on our perception and understanding of Islamic architecture.

ملخص

عادة ما يتم - عند دراسة تاريخ وتطور العمارة الإسلامية - تقسيم تاريخ هذه العمارة الى حقبة زمنية تنسب فيها العمارات الى أسماء الدول والتي تسمى بدورها حسب السلالات الحاكمة التي بنيت في عهدها هذه العمارات. الا ان نسبة هذه العمارات الى فترات معينة وحسب واختزال تطور العمارة الإسلامية الى تواريخ معينة فقط ربما له نواقصه في دراسة موضوع معقد كالعمارة الإسلامية. وهذا هو تماما موضوع هذه الورقة الذي يناقش مدى مطابقة نظام التحقيب ذلك لخصائص العمارة الإسلامية. سوف يتم بإيجاز طرح العديد من النقاط الهامة وثيقة الصلة بتاريخ وتطور العمارة الإسلامية التي يعجز التحقيب كنظام لدراسة العمارة الإسلامية على الاتيان على تفسيرها وبعض المثالب التي يزر بها هذا النظام وما يتركه ذلك في تصورنا لتاريخ وتطور العمارة الإسلامية.

تاريخ قبول البحث: 2002/3/10

تاريخ تسلم البحث: 2001/11/4

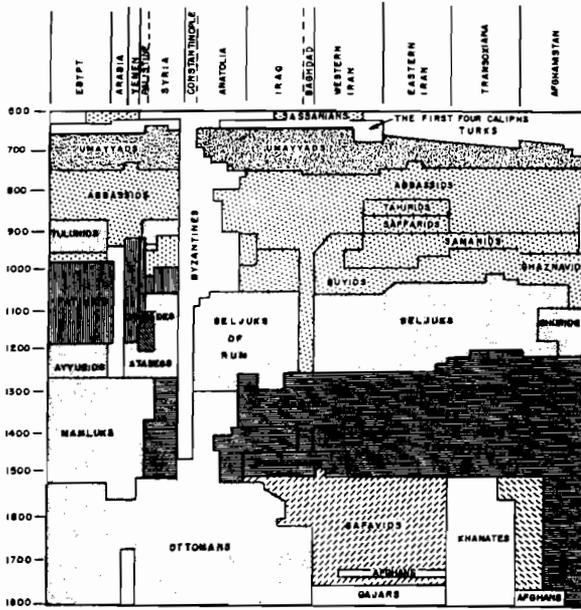
مقدمة:

يواجه المتأمل في تاريخ وتطور العمارة في العالمين العربي والإسلامي⁽¹⁾ مشكلة فريدة. فمن ناحية تبدو هذه العمارة على امتداد تاريخها الطويل وكأنها تمثل استمرارية تاريخية في الشكل والموضوع بالرغم من الاختلافات الظاهرة في أشكال البناء واختلاف مرجعياتها التاريخية. ولكن من ناحية أخرى فإن تقسيم هذا التاريخ الى فترات (تحقيقه) تميز كل فترة غيرها بسماتها الخاصة يتعارض مع كثير من الشواهد التي يعج بها هذا التاريخ نفسه والتي تؤكد باستمرار على وجود استمرارية ولفترات طويلة من الزمن في شكل و موضوع هذه العمارة يتجاهلها أسلوب التحقيق. والحقيقة ان أسلوب التحقيق ضروري لتشريح ظاهرة ما على حجم العمارة في العالمين العربي والإسلامي في أبعادها الزمانية والمكانية. إلا ان أسلوب التحقيق التاريخي الدارج يتخلله عدد من الظواهر تجعل إعادة النظر فيه امرا ضروريا⁽²⁾.

اعتماد نظام التحقيق ببعده السياسي فقط يتجاهل الطبيعة المتطورة للعمارة الإسلامية:

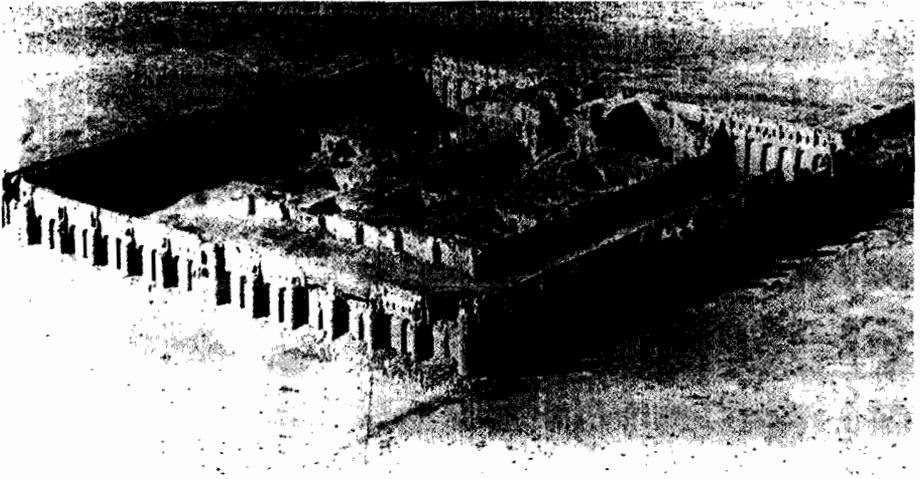
لعل اهم ما يميز أسلوب التحقيق هذا هو انه احادي البعد يعتمد اساسا على السرد الكرونولوجي (الزمني) لمجمل احداث التاريخ السياسي الذي مرت به مختلف الدول العربية والإسلامية وبالتالي فإنه يغفل الأبعاد المختلفة الداخلة في تطور العمارة. يستند نظام التحقيق على الخارطة الزمنية (شكل 1) التي تؤرخ وتحقب العمارة في المحيط العربي والإسلامي الى فترات تسمى كل واحدة منها بمؤسس هذه الدولة او تلك وتم في زمن هذه الدولة بناء عدد من العماثر ذات السمات المحددة. ولاضافة مزيد من الدقة على هذا النظام فإنه يلحق به مصطلحات ذات صفات زمنية كأن يقال: عباسي مبكر، عباسي وسيط، عباسي متاخر وهكذا. وبذلك اصبح التحقيق التاريخي للعمارة الإسلامية سياسيا بالضرورة اكثر منه تحقيقيا ياخذ في اعتباراته الأبعاد المتعددة الطبقات المصاحبة لعملية

البناء. ولان الجانب السياسي متداخل بعمق في التاريخين العربي والإسلامي فقد اصبح من الصعب التمييز بين الباعث السياسي، وتلك الاصول المتعددة الطبقات الداخلة في عملية البناء. كما ان تداخل التواريخ في كثير من المناطق وعدم خضوع مناطق اخرى في العالم العربي والإسلامي لنفس المرجعية السياسية المحقبة تلك اوجد نوعا من الازدواجية في نظام التحقيب. كما ان التحقيب في احيان كثيرة ولأسباب مختلفة لاياتي على ذكر العمارة في كثير من المواقع الهامة في العالمين العربي والإسلامي. ان تطور العمارة ليس بالضرورة موازيا للتطورات التي تحدث على الصعيد السياسي. وهكذا فعندما يصبح التحقيب منهجا فإنه يفرض تفسيرات نمطية للتاريخ ويصبح الزاميا بغض النظر عن مجارته للواقع التاريخي كما حدث بالفعل. ومن هذا المنطلق يبدو ان تاريخ العمارة في العالمين العربي والإسلامي في كثير من جوانبه - كما اسس تبعا لمفهوم التحقيب - هو عبارة عن تجمع لعدد من المباني التي يجمع بينها العامل الزمني فقط.



شكل (1) الخارطة الزمنية والجغرافية للعمارة الاسلامية تتجاهل الشطر الغربي من العالم الاسلامي

بطبيعة الحال فإن التحقيب ضروري لتسجيل تاريخ بدايه بناء ما او نهايته او تسجيل الاسماء الاشخاص الذين شاركوا في البناء، او للاسباب والدوافع التي ادت الى بنائه او الى غير ذلك من ذكر لبعض الحقائق التاريخية الخاصة بذلك البناء وهذا هو الجانب العلمي فيه. اما الجانب التاريخي لصيرورة عملية البناء فإنها تبقى مثار تساؤلات عدة. إنه لمن الاهمية بمكان فهم المقصود بالتحقيب التاريخي للعمارة الإسلامية هل هو تحقيب لأنواع البناء، ام لإشكالاتها، ام للفراغات، ام للإحوال الاجتماعية او الاقتصادية المصاحبة لها، ام للأساليب الانشائية المتبعة في بنائها ام ماذا؟. فالعمارة كظاهرة اجتماعية هي بالضرورة متعددة الأبعاد وبالتالي فإن التحقيب الراصد لهذه الظاهرة يجب ان يأخذ في الاعتبار الكثير من هذه الأبعاد وان يؤرخ ويحقب العمارة في ضوءها والا فإن قراءتنا لهذه الظاهرة في ظل اسلوب التحقيب تبقى قراءة وصفية. ان تاريخ العمارة في العالمين العربي والإسلامي مليء بمبان اتفق حسب مفهوم التحقيب انها بنيت في فترة زمنية محددة ونسبت تحديدا اليها. ولكن اصول هذه المباني تعود الى فترات أخرى تسبق هذه الفترة وبالتالي فإنه قد لا يكون من المناسب ان توضع هذه المباني ضمن الفترة الزمنية التي حقبت فيها. إن التحقيب كأسلوب متبع لدراسة ظاهرة ما يفترض فيه ان يعمل على تفكيك الظاهرة وتحقيبها في ظل النتائج التي تتوصل إليها عملية التفكيك هذه وليس إخضاع المعطيات المتوفرة عن البناء وهي شحيحة أصلا لنتائج التحقيب الكرونولوجي. وتبدو العمائر التي بنيت في عصور إسلامية مبكرة مثل قصر الحايرالغربي والمشتى وقصري عمرة والاخيضر (شكل 2) وغيرها امثلة واضحة على صعوبة تحقيب هذه المباني وبالتالي صعوبة إخضاعها لأي نوع من الدراسات في ضوء نتائج التحقيب المكونة لها سلفا.



شكل (2) قصر الاخضر جنوب العراق

تاصيل الأصول ونظام التحقيب:

وبالرغم من ان تتبع اصول الظواهر المعمارية او ما يعرف بـ (تاصيل الاصول) ليس من مهمة التحقيب مباشرة الا ان التحقيب بوضعه فواصل زمنية بين عمل واخر بل احيانا في ثنايا العمل الواحد يجعل من الصعب تتبع دراسة هذه الظواهر مما يؤدي الى وضع

أنماط مسبقة لشكل هذه

العمارة اوتلك تؤثر في

فهمنا لتتبع مسار

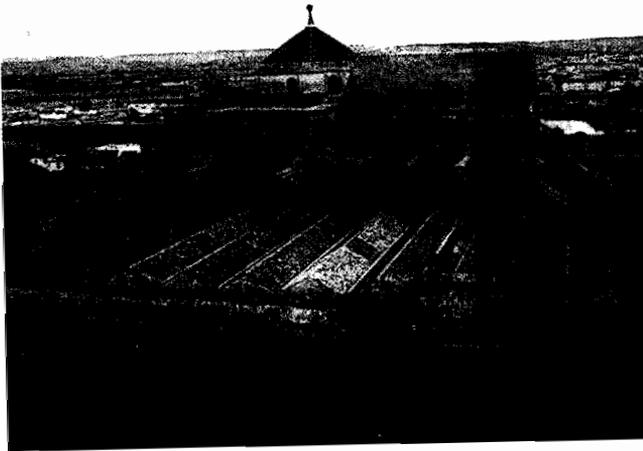
تطورها. والأمثلة على

ذلك كثيرة. يعتبر الجامع

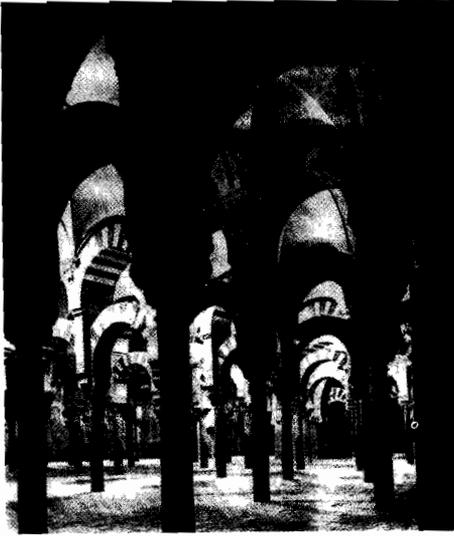
الأموي في قرطبة

(شكل 3) وهو احدي

عيون العمارة الاسلامية



شكل (3) الجامع الاموي في قرطبة بالاندلس



شكل (4) العقود المزدوجة في الجامع الأموي بقرطبة

مثالا واضحا على ذلك. فقد حمل سقف المسجد على نظام مزدوج من العقود (شكل 4) وهونظام لم يشاهد في أي بناء آخر. وبالرغم من ان العقود في كل الاتجاهات المحمولة على دعائم منتشرة في شمال افريقيا الا ان هناك من ينسب هذه العقود الى نظام القناطر الرومانيه⁽³⁾ التي تحمل المياه عبر اراضي الامبراطورية الرومانية. ومن الدارسين من يرى فيه محاكاة ولكن بأسلوب مختلف للجامع الأموي

بدمشق (شكل 5) ولكن هذا الأخير متأثر في نظامه بالنظام الروماني سالف الذكر



وبالتالي - واستنادا الى هذا الرأي - فإن التأثير الروماني واضح في كلتا الحالتين. غير ان هذا الرأي يشوبه بعض الحقائق. فنظام الري هذا مبني بأحجار ضخمة مرصوفة تباعا بينما النظام المتبع في الجامع هو عقود من الحجارة محمولة على اعمدة نحتت من الحجارة كما ان الإرتفاع المفرط للقناطر الرومانية واحجامها والمهمة المنوطة بها اصلا وهي حمل الماء الى مسافات بعيدة وليست حمل أسقف

لاتتناسب ومثيلاتها المتبعة في انشاء الجامع الأموي بقرطبة. كل هذه المعطيات تجعل من الصعب تماما ارجاع عمارة المسجد متمثلة في نظام العقود ذلك الى اصول رومانية. هناك مثال اخر ربما كان اكثر وضوحا، فلقد ارجع بعض المؤرخين اصول المنذنه الى اصول رومانية وبيزنطية. وقد ذهب كريسيويل⁽⁴⁾ وهو احد اهم مؤسسي تاريخ العمارة الإسلامية إلى ان المنذنة كعنصر معماري ربما كانت مستوحاة من منارة الاسكندرية كما ذهب غيره الى القول بأن اصل المنذنة تحدر من اواسط اسيا. بالامكان بالطبع وفي منتهى البساطة نقد مثل هذه الطروحات فمنارة الاسكندرية من الضخامة والارتفاع بحيث انه من المتعذر تماما تحويلها الى منذنة كما ان وظيفتها تختلف جذريا عن وظيفة المنذنة ولذلك فإن كل ما يترتب على ذلك الشبه من الصعب القبول به. ان القاء نظرة واحدة ولو بسيطة الى واقع العمارة في ارض الاسلام الاولى (الجزيرة العربية) والتامل فيها مليا لكفيل بتكوين صورة تختلف عما تقترحه مثل تلك الاقتراضات. فالمنذنة او المنارة هي برج، والابراج كانت ومازالت الى اليوم منتشرة في سائر انحاء الجزيرة العربية ويبقى تحويلها الى منذنة امرا في غاية السهولة بل ان هناك امثلة داخل الجزيرة العربية (شكل 6)



شكل (6) أبراج المراقبة والحماية في العمارة التقليدية في جنوب وغرب الجزيرة العربية

حيث يتم تحويل الابراج الحربية الى مآذن. بعض هذه الامثلة مازال صامدا ومنها ماقد تهدم⁽⁶⁾. وقد سجلت عدسات الرحالة الغربيين الكثير من هذه الابراج. وعلى كل حال فإن مشكلة تاصيل الاصول لكثير من العمائر في العالمين العربي والاسلامي تضرب باعماقها في المنهجية المتبعة لدراسة تاريخ العمارة الاسلامية وهناك الكثير من الامثلة التي تؤدي الى نفس النتيجة.

اعتماد نظام التحقيب على تاريخ البناء يتجاهل الطبيعة المتحولة للعمارة :

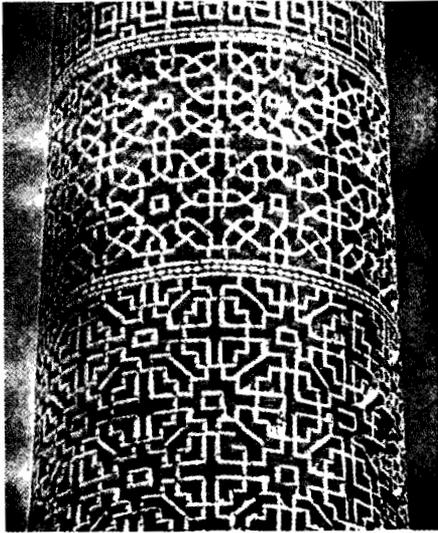
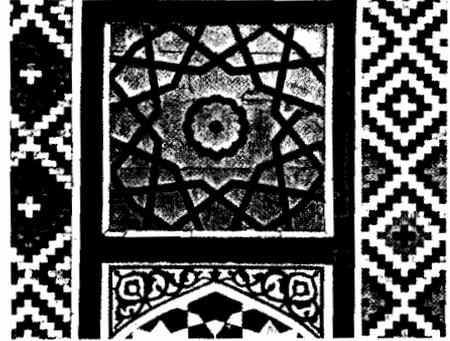
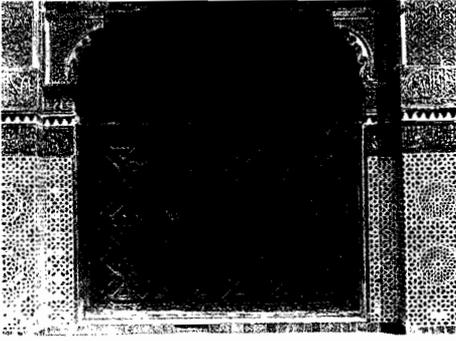
ان التحقيب قد ساهم بدرجة كبيرة في رسم صورة ثابتة لشيء غير ثابت اصلا (العمارة). واذا ما اضفنا ديناميكية التاريخ وتأثيره المستمر على العمارة وتعاقب الدول والممالك في السياق التاريخي للعرب والمسلمين لأدركنا مدى التناقض الناتج عن اسلوب التحقيب والتحويلات المستمرة التي تطرأ باستمرار في العمارة. اما تتبع السمات المعمارية المتشابهة حيناً وغير المتشابهة حيناً اخر فإن ذلك يبقى مرهونا بالاساس النظري الذي تم فيه تحقيب البناء. ونظرا لأن تاريخ هذا البناء قد يكون عرضة للمساءلة فان التتبع التاريخي لتطور البناء يبقى محل شك ايضا. يصادفنا في هذا السياق طرح التساؤل التالي: ما الذي يجعل مبنى ما ينتمي الى مجموعة من العمائر التي بنيت في حقبة معينة ؟ هل هو تاريخ بنائه ام هي مجموعة خصائصه الاساسية من وظيفة وشكل ومعنى واساليب بناء وعوامل شبه بمبان اخرى او عوامل اختلاف عنها؟ يبدو من خلال الطرح المدرسي لتاريخ العمارة الاسلامية ان تاريخ البناء هو العامل الاساسي في تحقيب البناء ونسبته الى عصره، هذا اذا ماتم التاكيد من التأريخ الدقيق لهذا التاريخ. اما الابعاد الاخرى الملصقة به فيتم تناولها كتطورات لاساليب بناء مختلفة ولاغراض مختلفة لبيان مختلفة تاريخيا وجغرافيا قد تقرب حيناً وتبعد احيانا اخرى عن البناء موضع الدرس. ونظرا لغياب بعض الحقائق التاريخية ووجود فجوات في تتبع اصول البناء يحدث عادة نوع من

الافتراض الذي قد يصيب تارة وقد لا يصيب تارة أخرى وبالتالي فإن النتائج المتوخاة من وراء ذلك تبقى ذات طبيعة افتراضية.

بطبيعة الحال فإن دراسة تاريخ أي ظاهرة انسانية مرتبطة اساسا بدراسة التاريخ نفسه. الا ان هذا التاريخ ولأسباب يطول الحديث عنها مازال يكتنفه الكثير من الضبابية وبالتالي فإن النتائج المتوخاة من الدراسات ذات الطبيعة التاريخية ستكون مرهونة بالنتائج التي تتمخض عنها القراءات التاريخية المبنية على المعارف الحقيقية بعيدا عن الاعتبارات المؤثرة الأخرى. وإذا كانت العمارة هي انعكاس لعدد من الظواهر الاجتماعية فإنه من الأولى التاريخ لهذه الظواهر ومن ثم تاريخ انعكاسها في العمارة. ونظرا للصعوبات الجمة التي تكتنف البحث التاريخي العميق فقد اتسمت بعض الدراسات⁽⁷⁾ لتاريخ العمارة الإسلامية بالطابع العملي والذي يرى انه لا يجب دراسة الاعمال او الآثار الفنية مباشرة ولكن دراستها في ظل التاريخ المتعدد الطبقات الذي انشئت فيه هذه الاعمال.

الزخارف المعمارية والخط العربي كمواضيع مشروعة للتحقيب:

هذا عن الزمن كموضوع مباشر للتحقيب ولكن ماذا عن المكونات الأخرى للعمارة باعتبارها أيضا مواضيع مباشرة للتحقيب؟ تتميز العمارة في محيطها العربي والإسلامي بكثرة زخارفها (شكل 7) التي تأتي في اشكال عدة. وبالرغم من ذلك فإن الزخرفة كمنظومة فنون بصرية متكاملة لم تأخذ نصيبها الذي تستحقه من التحقيب على المستوى التاريخي الصرف اذ ان معظم الاساليب التي تتناول الزخارف المعمارية تركز على الاسلوب الوصفي لها، ناهيك عن ان تحقيبها على مستوى المعنى والاسلوب وعلاقتها بمثيلاتها في الفنون التي عادة ماتوصف بانها فنون صغرى كالحرف اليدوية من فخار واسلحة وسجاد ومنمنمات وفنون الكتاب وغير ذلك أمر لم يتم تناوله بالتفصيل. ونظرا لان

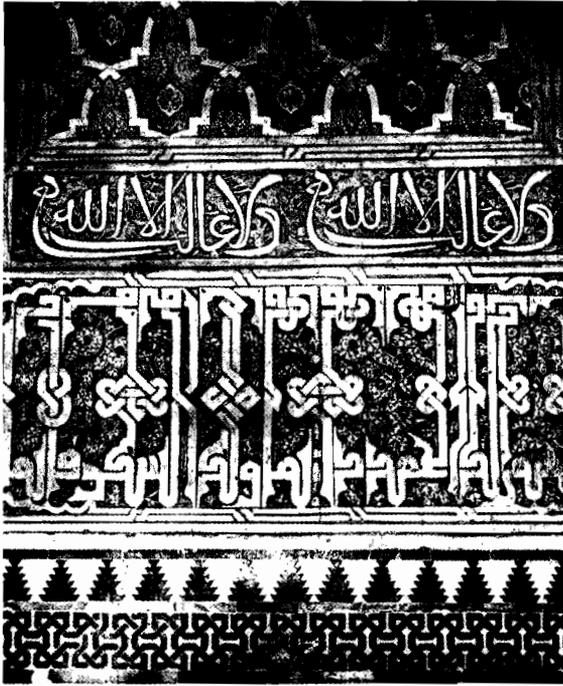


الكثير من المباني في العالمين العربي والاسلامي تتسم ببساطة متناهية في الشكل مما يدفع بالزخرفة لان تكون اهم عنصر في البناء، الا انه وبالرغم من ذلك فإن الاهتمام ينصب اكثر على التحقيب التاريخي للبناء وليس على الزخرفة و التحولات الطارئة عليها من فترة لآخرى كموضوع اساسي في البناء. ومايقال عن الزخرفة ينطبق كذلك على

شكل (7) أنماط زخرفية لعناصر مختلفة بأساليب مختلفة في أماكن مختلفة من العالم الاسلامي

الخط. فعندما يتم تناول الخط العربي⁽⁸⁾ في العمارة بالدراسة (شكل 8) فإنه يعامل

كنوع من الزخرفة وربما كان لغلبة النزعة الزخرفية للخط دور في ذلك الا ان الخط العربي ليس زينة بصرية فقط ولكنه رسالة تحمل وراءها معاني عدة. ولنا ان نتصور النتائج المترتبة على الدراسات التي تتناول الخط ليس فقط كموضوع للتحقيب التاريخي للخط في حد ذاته ولكن بارتباطه بالبناء الذي يزينه. ان من شان ذلك ليس فقط ان يساعد على التحقيب الدقيق للبناء وللرسالة التي يحملها الخط في ثناياه ولكن ايضا للتحولات السياسية والاجتماعية التي صاحبت الحقبة التي تم البناء بها نظرا لان العبارات الخطية



كثيرا ماكانت تختار بعناية تبعا للظروف السائدة ابان الحقبة المعنية. وفي حقيقة الامر ونظرا لان الخط العربي باعتباره فنا يخترق كافة الاوساط الفنية في العالم العربي و الاسلامي وليس مقتصرنا على العمارة فقط، اضافة للطبيعة الاعلامية للخط وللمعاني الثقافية المتعددة التي يحملها فإن غياب الدراسات⁽⁹⁾ التي تتناول تكوين الخط وتطوره

وعلاقته بالعمارة خارج نطاق شكل (8) عبارات خطية كتبت بأقلام مختلفة تنتمي الى عصور مختلفة التحقيب قد ساهم في غياب واحد من اهم مصادر التعرف على نواح عدة في العمارة وكذلك في كافة الفنون الاخرى. ومن المعروف ان الخط العربي يجلب معه فنون الكتاب من خط ومنمنمات وفنون الانسجة المطرزة والحالة الاجتماعية لمقتنيها وكذلك السجاد. وهكذا ففي ازدهار فكرة التحقيب التاريخي انزوت هذه المكونات بالرغم من اهميتها الى الظل. وما ينطبق على الزخارف المعمارية والخط العربي ينطبق كذلك على اساليب الانشاء ايضا.

الفراغ المعماري واهميته في دراسة تاريخ العمارة:

بالامكان الاسترسال في ذكر المجالات التي يحجم التحقيب بمفهومه الكرونولوجي عن الخوض فيها و يبقى الفراغ هدفا اساسيا للعمارة قديما وحديثا. ولكن وبالرغم من اهمية التعرف على الفراغ و تطوره الا انه لم ينل الاهتمام الذي يستحقه. فما زال من غير

الواضح سبب احجام الدراسات عن الخوض في دراسة طبيعة الفراغ المعماري في العالمين العربي والاسلامي. وربما ترسخ لدى البعض ان العمارة في العالم العربي والاسلامي لاتولي الفراغ الالهية التي يستحقها ويستدل على ذلك بأن كثيرا من المباني في هذين العالمين عبارة عن تذكارات صلدة لاحتوي على فراغات لسكنى الانسان. وهناك من يرى ان الفراغ في العمارة هو من البساطة في الشكل بحيث انه من الممكن الاحاطة به والتعرف عليه من خلال وصف مبسط للبناء⁽¹⁰⁾. وهناك فريق ثالث يذهب الى ان الفراغ في العمارة مرتبط بالنسيج العمراني الذي يعتبر هذا الفراغ امتدادا له. ان التطور المورفولوجي والتيبولوجي للفراغ في العمارة امر في منتهى الالهية. وهو ما لا يحظى بنصيب وافر في ظل اتباع اسلوب التحقيب.

تتسم العنائر التقليدية عموما والعمارة في العالمين العربي والاسلامي بمثال بارز عليها باهتمامها بالبعد الانساني وربما كانت تلك اهم سمة فيها. فالانسان هو محور اهتمام هذه العمارة وفي ظل هذا الوضع تبدو الدراسات الانثروبولوجية مناسبة تماما لفهم الكثير من اسرار العمارة في هذه المجتمعات ولكن وبالرغم من ذلك فإن هذا النوع من الدراسات لم يحظ بنصيبه وافرا في ظل المناهج التي تحقب العمارة. الا ان هذا لايعني غياب بعض الدراسات في هذا الجانب ولكنها تبقى منفصلة عن العمارة وبالتالي فإنه من المهم توظيف هذه الدراسات الانثروبولوجية لإعادة رسم تاريخ العمارة من جديد. ان الانفصال بين الدراسات الانثروبولوجية والعمارة العائد اصلا الى طبيعة كل منهما والى التصورات المسبقة لكل منهما عن الاخر قد ساهم في اغفال هذا الجانب الحيوي في تناول هذه الظاهرة مما ادى الى اغفال الجوانب الاساسية والاجتماعية البالغة الالهية في نشوء وتطور العمارة.

ويبدو واضحا في ضوء هذه المعطيات ان هناك حاجة لايجاد انواع مختلفة من التحقيب وليس نوع واحد وهذا ما حدا ببعض الدارسين الى التمييز بين المؤرخ السياسي

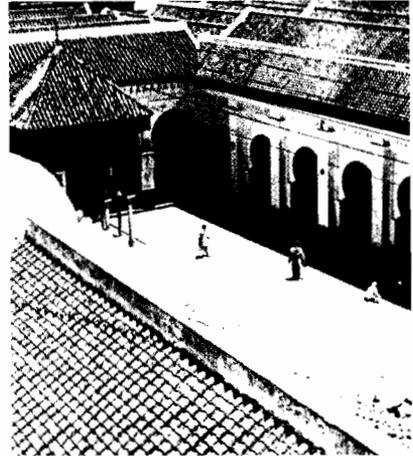
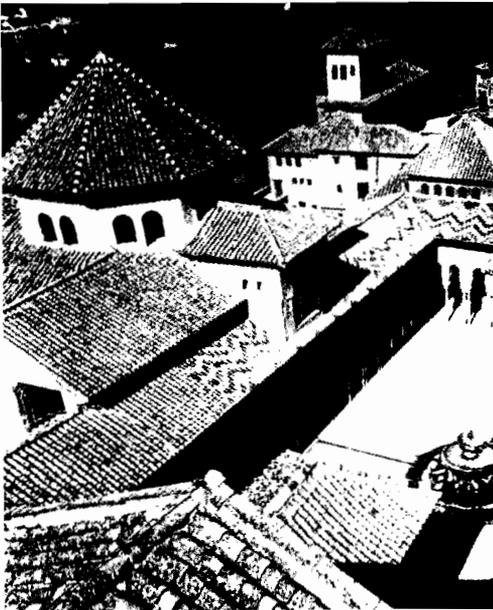
والمؤرخ الاجتماعي. ولعل الاهتمام بالتاريخ السياسي قد جاء على حساب التاريخ الاجتماعي الذي مازال وليدا في تناوله للمجتمعات العربية والإسلامية. وهذا أيضا ما حدا ببعض الدارسين⁽¹¹⁾ لفن العمارة الإسلامية الى التمييز بين الزمن المطلق والزمن النسبي. فالزمن المطلق قد يمتد لقرون او عقود او سنوات بعد تكون الفن الإسلامي وهو زمن من الممكن تعريفه بدقة من خلال احداث تاريخية معينة. بينما الزمن النسبي يحدد بال اللحظة التي يتم فيها قبول ثقافة ما وتحولها بالتغيرات التي من الممكن تحديدها. ومن الواضح من هذا التصنيف سيطرة الحدث السياسي على فكرة التحقيب في الزمن المطلق بينما تعطى الاولوية في الزمن النسبي للتغيرات العميقة البطيئة نسبيا التي تحدث في العمارة وهذا ما يحتم دراستها في ضوء اساليب منهجية اخرى.

الطبيعة العضوية للعمارة الإسلامية ونظام التحقيب:

كما ان التحقيب يصطدم بعقبة ناتجة عن واحدة من اهم الصفات المميزه للعمارة في المحيط العربي والإسلامي. اذ يبدو تطور هذه العمارة وكأئنه قد نحا منحى عضويا⁽¹²⁾ والمقصود بالمنحى العضوي هو غياب التحولات الاساسيه في العمارة التي تحدث فجأة تحت تأثير تاريخي معين و التي تميز كل حقبة عن الحقبة التي تليها او تسبقها. صحيح ان هناك بعض الفروق التي تميز فترة عن الاخرى ولكن هذه الفروقات ليست من الواضح او الضخامة بالقدر الكافي الذي يؤهلها لأن تكون عمارة حقبة متميزة عن غيرها. وهذا ما حدا ببعض الدارسين⁽¹³⁾ للقول بأفقية العمارة الإسلامية: "ففي الفن الإسلامي هناك مستويان الاول عمودي والآخر افقي. يتمثل المستوى العمودي في ميراث الامم الإسلامية قبل مجيء الاسلام اليها. اما الافقي فهو نتيجة لصهر هذه الفنون في بوتقة واحدة تحت لواء الاسلام". وهكذا اصبح هناك وحدة افقية الاتجاه تميز العمارة الإسلامية في كافة مراحل تطورها ومن الواضح ان هذه الوحدة التي عادة ماتوصف بها العمارة الإسلامية

هي نتيجة للتطور العضوي الطويل الامد. لذلك فإنه يغيب عن هذا التطورتلك التحولات النوعية في اساليب البناء. ان العماثر ذات الطابع العضوي تستغرق اوقاتا اطول من التطور يصعب معها وضع حدود فاصلة للمكونات التي أنشأت هذه العمارة ويؤدي ذلك حتما الى صعوبة تحقيق هذه العمارة. وهكذا فإن تحقيق العمارة ذات الطبيعة العضوية اصلا يحيلها الى مجرد تواريخ لأبنية بنيت في ازمئة معينة.

هذا عن عضوية العمارة في بعدها الزمني لكن هناك ابعادا فرعية اخرى لعضوية العمارة. عرف عن العمارة الاسلامية (شكل 9) التشابه الكبير بين انواع البناء



شكل (9) (يمنى) بهو الاسود في قصر الحمراء بقرنطه (يسرى) صحن جامع القرويين بفاس بالمغرب، والتشابه يبدو جليا بالرغم من اختلاف نوع البناء والزمان والمكان

الرئيسية كالمساجد والمدارس والاربطة والخانات مما يجعل من الصعب احيانا التعرف بدقة على نوع البناء نظرا لتشابه عناصره وكثيرا ما دفع هذا التشابه الى الخلط بين كثير من المباني في الدول العربية و الاسلامية. كما ان الكثير من هذه العماثر ذو طبيعة أنية على مستوى الوظيفة وعلى المستوى الاجتماعي ايضا وهذا مايفسر ازدواجية كثير من العماثر العربية و الاسلامية وبالتالي فإن التحقيق لهذه العماثر يصطدم بمهمة تحديد

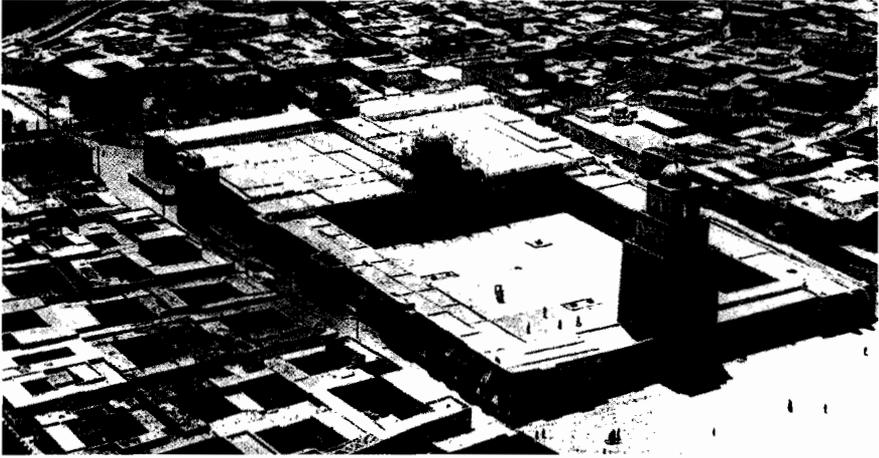
الغرض الاساسي من انشاء البناء. كما ان الكثير من المباني يطرأ عليها تحولات مستمرة لكي تناسب استخدامات متجددة باستمرار فما ان يتم الانتهاء من بناء معين حتى يتم احداث تغييرات معينة عليه وما ان تنتهي تلك حتى تبدأ تغييرات اخرى وهكذا. وهذا احد مبادئ مايسمى بديمومة العمارة الاسلامية⁽¹⁴⁾. ان هذه التحولات والعلاقات التيبولوجيه والمورفولوجيه لاتستحوز على اهتمام التحقيب كمنهج معرفي يبحث في اسباب وطرق حدوث هذه التحولات وانعكاساتها على العمارة.

العمارة الشعبية ونظام التحقيب:

تمثل العمارة الشعبيه بعدا آخر للعمارة العربية والاسلامية والعمارة الشعبيه هي ابرز تمثيل لعضوية العمارة وتزداد علاقه بينهما رسوخا اذا ما عرف عن العمارة الشعبيه انها بالضرورة ذات طبيعة عضوية. وككل الظواهر الشعبيه فإن هذا النوع من العماثر لا يستحوز على الاهتمام الذي يستحقه من قبل المؤرخين بالرغم من ثراء العمارة الشعبيه في تعاملها مع كافة الواجه البيئية والاجتماعية، اذ عادة ماتنزوي العمارة الشعبيه في معظم الكتب التي تؤرخ للعمارة الى صفحات قليلة في نهايات الكتب وبقليل من الشروحات البسيطة. تكمن اهمية العمارة الشعبيه في انها تعطي ابعادا معرفيه اخرى للعمارة لم يتم التعرف عليها عند تناول العمارة المسجلة التي عادة ماتستحوز على الاهتمام الاكبر. ففي دراسة العمارة الشعبيه تسجيل لكثير من اوجه حياة الناس الاجتماعيه والاقتصاديه والفكريه. ان مبدأ التحقيب لاياتي على ذكر العمارة الشعبيه لانها خارج موضوع التاريخ السياسي الاحادي البعد. اذ عادة ما ياتي ذكر الامور التي تتخذ من المباني العامة والرسمية التي تم تسجيلها وتحقيبها امكنة لها. اما المباني الشعبيه فنادرا ما كانت مسرحا لاحداث هامة ذات علاقه بتاريخ هذه الدولة او تلك ولذلك يتم تجاهلها. بل وحتى عندما يتم تحقيب اسلوب معين في البناء فإنه لاينظر الى امكانية

وجود اصول ذلك الاسلوب في العمارة الشعبية بل ما يتم عادة هو البحث عن اصول ذلك الاسلوب في مبنى بعيد اخر تم تحقيقه قد لا يمت للبناء موضع الدراسة بصلة.

ساعد اسلوب التحقيب هذا في وضع حد فاصل بين العمارة المسجلة (المحقبة) والعمارة الشعبية الا ان هناك من الدلائل ما يشير بقوة الى ان هناك تداخلا فيما بينهما تختلف صوره من مكان لآخر. فكثير من المباني العامة والمسجلة (المحقبة) انما تقع ضمن نسيج عمراني عادة ما يكون متشابكا وبذلك فإن هناك تداخلا مباشرا بين العمارة الشعبية وبعض العماثر المسجلة التي تتخللها او ربما كانت امتدادا نوعيا لها. وقد لا يكون الفرق بين ماهو شعبي وماهو مسجل سوى اختلاف أحجام الابنية. وقد يكون التداخل على مستوى التقنية المستخدمة في البناء (شكل 10) او قد يكون في المعنى وقد يكون



شكل (10) الحائط الخارجي لجامع القيروان بتونس ينتمي في شكله واسلوب بنائه الى العمارة التقليدية

التداخل لغويا. وفي كل هذه الاحوال فإن الحد الفاصل بين شكلي العمارة هذين هو حد شكلي فرضته اساليب التحقيب التي فصلت بين هذا وذاك. ان تمفصل (التعرف على الظروف والوقائع التي تحولت فيها العمارة الشعبية الى رسمية محقبة) العمارة المسجلة والعمارة الشعبية من شأنه الربط بين الحقب التاريخية المختلفة ورسم صورة عضوية

لتطور تاريخ العمارة الذي هو عضوي بالضرورة. وبطبيعته الحال فإن أهميته هذا التمهيد تختلف باختلاف حدة التباين بين الحقب التاريخية المختلفة. وتزداد أهمية هذا التمهيد في العصور الإسلامية المبكرة والعصور الحديثة نظرا لحدثة هذه العمائر بالعمارة الشعبية من جهة ونظرا لاحتكاك هذه العمارة بعمائر أخرى مختلفة عنها كما ونوعا من جهة أخرى. وهكذا فإن اغفال العمارة الشعبية كنتيجة مباشرة للتحقيب قد فوت الفرصة على الدارسين رؤية مصادر أخرى أثرت في نشوء وتطور العمارة الإسلامية والتي لو كانت قد أوليت اهتماما ولو بسيطا لتغيرت معرفتنا بالعمارة وتطورها.

نظام التحقيب والانتساع الجغرافي للعمارة الإسلامية:

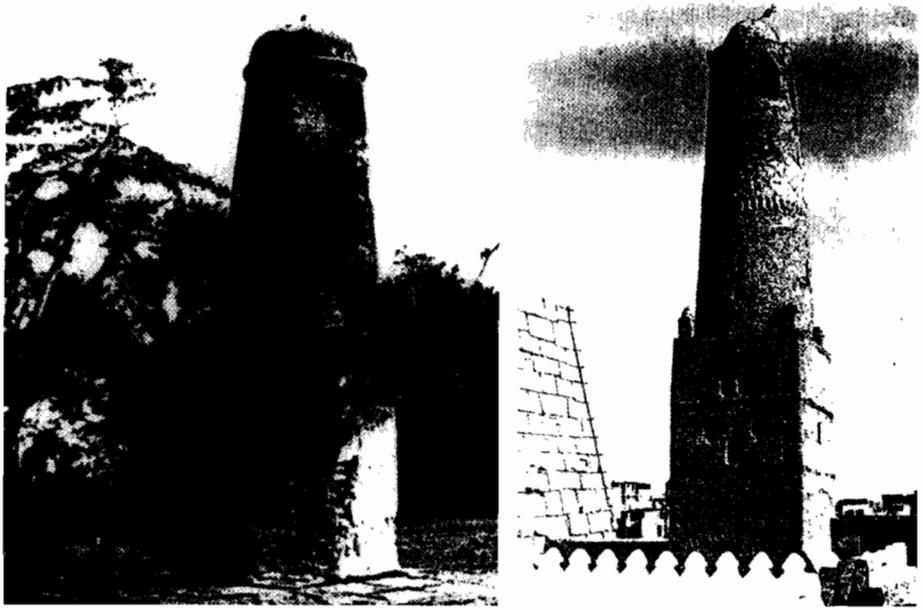
وكننتيجة مباشرة لذلك فإن تاريخ العمارة الإسلامية كما هو مؤسس الآن لا يأتي على ذكر الكثير من الاقاليم التي ازدهرت فيها العمارة الشعبية أكثر مما ازدهرت العمارة المحقبة. هذه الاقاليم وعمائرهما الشعبية كان من الممكن لها ان تؤثر بدرجة او بأخرى على معرفتنا بمسار تاريخ العمارة لو تم الالتفات إليها. وتأتي الجزيرة العربية على رأس تلك الاقاليم. أدى مفهوم التحقيب بمؤسسي تاريخ العمارة العربي والإسلامي إلى الافتراض سلفا وفي عجلة ان الجزيرة العربية لم تزدهر بها فنون بناء كتلك التي ازدهرت في الامبراطوريات الرومانية والبيزنطية والفارسية وبالتالي فإنهم بافتراضهم ذلك غضوا الطرف تماما عن احتمال ولو بسيط في ان تكون بعض جذور العمارة المبكرة في العالم العربي والإسلامي ترجع في اصولها من قريب او بعيد إلى شبه جزيرة العرب. فالقول المتكرر بان اصول العمائر الإسلامية وبالذات المبكرة منها ترجع إلى اصول رومانية وبيزنطية بالرغم من صحة هذا القول احيانا الا انه في احيان أخرى كثيرة مجاف لبعض الحقائق. صحيح ان هناك عناصر واساليب بناء مستمدة من الحضارات ما قبل الإسلامية في البلاد حديثه العهد بالاسلام ولكن الروح العربية والإسلامية هي السمة البارزة في هذه

العمائر. لقد تم توطين ما وجده العرب من اساليب معمارية ووظفوه بأسلوبهم لكي تواكب الوضع الجديد والحضارة التي بدأت للتو. لقد تم تحويل العناصر واساليب البناء والزخرفة لكي تصبح عربية اسلامية الملامح بالرغم من ان جذورها ذات اصول رومانية، بيزنطية، ساسانية و غير ذلك. وهذه صورة مبكرة للتلاقح بين الحضارات اذ نجحت الثقافة الاسلامية آنذاك في ان تستوعب معطيات الثقافات الاخرى وان تضيفي على الارث المعماري المتعدد المشارب في تلك الثقافات طابعها الخاص وان تصهره في بوتقة معمارية واحدة.

هذا عن الحديث عن البناء الواحد كمجموعة مترابطة من العناصر اما انواع البناء فالكثير منها ذو اصل عربي بالفطرة. فمعظم العمائر الاسلامية هي عبارة عن فراغ في الوسط محاط بغلاف تتخلله ابراج او بوابات او دعامات تبعا لنوع البناء. ومن الواضح حسب الاكتشافات الاثرية في جزيرة العرب⁽¹⁵⁾ وفي أطراف بلاد الشام ان هذه الانواع من البناء كانت قد ازدهرت في الجزيرة العربية لاغراض اما دفاعية او سكنية او تجارية. ولذلك فإن هناك استمرارية تاريخية واضحة بين معظم انواع البناء التي عرفت في العصور الاسلامية اللاحقة وتلك التي كانت منتشرة قبل ظهور الاسلام وهو ما لم يأت عليه اسلوب التحقيب بتاتا. ان القاء (شكل 11) نظرة خاطفة على القلاع الاندلسية -



شكل (11) قلعة Banos de la Encina والتي بنيت عام 1986 في الأندلس ويبدو انتمائها الجغرافي للبلاد العربية واضحا



شكل (12) (يمين) برج على الطريق في اقليم جايبور بالهند - (يسار) منارة مسجد ابوالحاج في الاقصر بمصر

بالرغم من البون الجغرافي الشاسع الذي يفصل شبه الجزيرة الايبيرية عن شبه الجزيرة العربية - يذكر مباشرة بمثيلاتها في الجزيرة العربية وفي بلاد المغرب العربي بالرغم من اختلاف الزمان الذي بنيت فيه هذه القلاع. وبالامكان اجراء مقارنات مشابهة (شكل 12) لعناصر مختلفة في اماكن مختلفة من العالم الاسلامي. هذا التلازم في المسببات والاحوال الاجتماعية من جهة والتشابه الدقيق في سمات البنين من جهة اخرى يدل مرة تلو الاخرى على محدودية اسلوب التحقيب في تفسير ظواهر الشبه المتعددة التي يزخر بها تاريخ العمارة.

واذا كانت الجزيرة العربية لم تلق الاهتمام الكافي لمساهمتها في كتابة تاريخ العمارة فإن الشيء نفسه يقال عن مناطق اخرى كثيرة في العالمين العربي والاسلامي كالساحل الافريقي والبرتغال وشبه القارة الهندية وجنوب شرق اسيا وبالرغم من ان هذه المناطق جغرافيا في اطراف العالم الاسلامي الا ان كثيرا من عيون العمارة الاسلاميه قد

ازدهرت على اطراف العالم الاسلامي وبدرجة تفوق مثيلاتها داخل قلب العالم الاسلامي. وبالرغم من ذلك فإن التحقيب كما هو متعارف عليه لا يفسر هذه الظاهرة بل لاياتي على ذكرها اصلا. و هذه ظاهرة اخرى تبقى جديرة بالملاحظة والاهتمام.

العوامل الجغرافية واهميتها في تطور العمارة الاسلامية:

ومما ساعد على ازدهار مفهوم التحقيب هو اعتماد الدراسات التي تتناول العمارة الاسلامية على علم الاثار. وبالرغم من طابع الحجة الذي يفرضه علم الاثار الا ان الاخذ فقط بالجانب المادي فقط لدراسة تاريخ العمارة يبقي هذا التاريخ رهنا بكل اكتشاف جديد تتغير نتائجه باستمرار . كما ان الارث المعماري في الدول العربية والاسلامية - على عكس مثيلاته في الاماكن الاخرى - ليس بذلك الموغل في القدم وبالتالي فإن الاعتماد على علم الاثار وحده دون اللجوء الى الدراسات الاجتماعية الموازية له سيضفي مزيدا من الرتبة على هذا التاريخ. كما ان بطء الدراسات الاثرية والوقت الطويل الذي تستغرقه فضلا عن اختلاف التفسيرات التي تعطى لهذه الاكتشافات كل ذلك يسهم بصورة او باخرى في تكريس مفهوم التحقيب.

ويبدو ان العمارة الاسلامية هي ذات طبيعة جغرافية اكثر منها ذات طبيعية تاريخية وبالتالي فإنه من المناسب اتباع اساليب جغرافية لدراستها. وفي ضوء التصور الافقي للعمارة الذي ورد اعلاه فإنه يبدو ان الجغرافيا وليس التاريخ هي التي لعبت الدور الاكبر في نشوء وتطور العمارة لاسيما وان معظم الدول العربية والاسلامية تم فتحها في ظرف مائة وعشرين سنة فقط وهي فترة قصيرة بكل المقاييس في مسيرة تطور العمارة الاسلامية الذي يربو على اربعة عشر قرنا. كما ان الامتداد الجغرافي الواسع للعالمين العربي والاسلامي وتشابه الحوادث التاريخية التي مرا بها يجعل من البعد الجغرافي امرا اكثر اهمية من البعد التاريخي. ان البعد الجغرافي هو البعد المتحرك في نشأة وتطور العمارة

الاسلامية بينما يمثل البعد التاريخي المتمثل اصلا في الفتوحات الاسلامية وتعاقب الخلافات عليها البعد الثابت وهكذا يمكن ربط العمارة في سائر انحاء العالم الاسلامي. ان الامثلة التي تؤكد على اسبقية الجغرافيا على التاريخ في تطور العمارة الاسلامية كثيرة. فبالإمكان تقسيم العمارة في العالمين العربي والاسلامي الى كيانات جغرافية متباينة تلعب عوامل المناخ والتبادلات المباشرة بين هذه الاقاليم المتقاربة جغرافيا الدور الحاسم في رسم الخطوط العريضة لهذه العمارة . وبطبيعة الحال فإن البعد الجغرافي يجلب معه كافة العوامل التي تفرضها الجغرافيا من مناخ وطبوغرافيا ومياه وبحار وصحار وانهار وجبال وتأثير كل ذلك في تطور العمارة الاسلامية وهنا تكمن اسرار التطورات الحقيقية التي يزر بها تاريخ هذه العمارة.

الخاتمة:

ختاما، فمازالت معرفتنا بالعمارة الاسلامية تعتمد على نظام التحقيب التاريخي بمفهومه الكرونولوجي لمختلف مراحل تطور العمارة الاسلامية. الا ان الاعتماد على وضع حدود زمنية فاصلة بين فترة واخرى تعني فقط بالتطور الزمني للاحداث السياسية لايفسر كثيرا من الظواهر المصاحبة لتطور هذه العمارة، وبالتالي فإن هناك حاجة ماسة الى الذهاب الى ما هو ابعد من ذلك لسبر البعد المعرفي الاحفوري للعمارة كانعكاس لتاريخ الشعوب العربية والمسلمة على ان يصحب ذلك بالنقد للاسس المعرفية القائمة التي يستند عليها تاريخ العمارة. وربما كانت هناك حاجة ماسة الى نظام تحقيب اخر وربما نظم تحقيب اخرى لاتستند على البعد الكرونولوجي للدول الاسلامية ولكن على تطور العوامل الدفينة الفاعلة في العمارة. ويبقى ذلك مشروعا يستحق الاهتمام.

ثبت المراجع:

- حيان صيداوي، الاسلام وفتوية تطور العمارة العربية، دار المتنبي، بيروت، 1992
- احمد عمر الزيلعي، الآثار الاسلامية بمنطقة الباحة: الخلف والخليف، آثارهما ونقوشهما الاسلامية، 1997، الرياض
- Al-Jawahrah, Hani, **The Native Architecture of Asir Region in Saudi Arabia**, Edinburgh University, 1996.
- Bloom, J.M.M, **Minaret, Symbol of Islam**, Oxford Studies of Islamic Art, VII, Oxford, 1989. P.162
- Creswell. K.A.C., **Early Muslim Architecture**, ed. I, 1969, Oxford.
- Duncan Haldane, **Islamic Bookbinding**, 1983, London
- Ernst Diez, A Stylistic Analysis of Islamic Art, **Ars Islamica**, 1938.
- Godfrey Goodwin, **Islamic Spain**, 1990, London.
- John Hoag, **Islamic Architecture**, 1977, New York, P.35
- King, G.R.D., Creswell's Appreciation of Arabian Architecture, **Muqarnas**, VIII, 1991.
- Michell, **Architecture of the Islamic World**, its history and social meaning, , 1978, London.
- Nurha Atasoy, **The Art of Islam**, 1990, P. 91.
- Oleg Grabar, **The Formation of Islamic Art**, 1976, New York.
- Alhambra**, 1978, Cambridge, Massachusetts.
- Robert Hillenbrand, **Islamic Architecture, Form, Function and Meaning**, 1994. London.
- Islamic Art and Architecture**, 1999, London.
- Rustam Mehta, Masterpieces of Indo-Islamic Architecture, 1976, Bombay.
- Yassir Tabbaa, The Muqarnas Dome: its origin and meaning, **Muqarnas**, V.III, 1985.